جانبها المساجد والأضرحة والتكيّات والمدارس، كما قامت العائلات من الأشراف والتجار الكبار ببناء معهد للعلوم باسم القاضي «أحمد بابا» (1556-1627م) والذي نبغ بعلومه وآدابه في «تين بكتو» والذي حوت مكتبته أكثر من 20 ألف مجلد ومخطوط من العلوم المتنوّعة، وأعاد المجد التراثي لتلك المدينة من جديد وازهارها الديني والعلمي والأدبي والتي عرّفتها «اليونسكو» بكنوز «تين بكتو»، وكثروة تراثية تاريخية عريقة لمدينة إسلامية عمرها أكثر من ألف عام، رصّعت القارة الأفريقية بنجوم علمائها وأتقيائها وبشتّى العلوم، حتى غدت محطة علمية ومحجّا دينيًا لكلّ العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية ودول المغرب العربي، ومنهلاً علميًا وأدبيًا لكلّ المستشرقين والعلماء والباحثين والمستكشفين الأوروبيين، ومحطة تجارية لكل القادمين للتجارة والمال من أفريقيا وآسيا وأوروبا.

تراث «تين بكتو»

تحتفظ مكتبات «تمبكتو» بـ 100مائة ألف مخطوط موثق، كما تحتوي مكتبتا مدينتي «سيجو» و «جوا» على 900 ألف مخطوط، وتعتبر هذه المدن الثلاثة من أهمّ المراكز العلمية الإسلامية حسب ما عرّف عنها المستشرقون والمستكشفون الذين قدموا لها في القرن التاسع عشر، ودرسوا تلك الحضارة عن كثب بكتبها وعمرانها وشواهدها الأثرية وأهلها الطيبين والمنفتحين على كلّ الشعوب لتمازجهم الثقافي. وكان أهمّ هؤلاء القادمين والمستكشفين الباحث الفرنسي «رينيه كاييه»، والألماني «هنريتش بارت»، و«فيليكس دو بوا» الفرنسي، والمستكشف الاسكتلندي «مونجو بارك»، والذين عرّفوا العالم الغربي بتلك المدن وأهمّيتها الثقافية بجرأة الكاتب الحرّ بالتحدّث عن مساوئ المستعمر الفرنسي وكيفية نهبه للقاها الأثرية وكنوزها العلمية لتوضع في متاحف أوروبا ونيويورك طمعًا بالثراء المالي والفكري والثقافي، كذلك التحدّث عن تلف بعض المخطوطات التاريخية التي تتحدّث عن ممالك أفريقية حكمت بأيد القبائل الرحّل وفي حروبهم القتالية التي عرّضت- قصدًا- تلك المكتبات للحرق والتدمير، من قبل عصابات سرقة الآثار الموجّهين من قبل جماعات سرّية، والتي تستغل الحروب والثورات الأهلية لسرقة الآثار والكنوز التراثية، إلى جانب محوها الآثار المهمّة التي تسجّل التاريخ السيء لهؤلاء، أو تخفي معلومات قيّمة تهمّ التطوّر الحضاري وتظهر التنوّع الديني والثقافي الذي هو أساس البناء الحضاري وحجرًا هدّامًا في وجه التعصّب والتخلّف الديني والعنصري.

ابن بطوطة العربي

كان ابن بطوطة (1304- 1369م) من أوائل المستكشفين من الرحّالة العرب الذين قدموا من المغرب العربي إلى «مالي» وحلّوا في مدنها وأهمّها «تين بكتو»، وعرّف العالم العربي والاسلامي عنها، ودوّن عن معارفها العلمية والأدبية وتراثها من المخطوطات المهمّة وعن مناجمها من الذهب ومصادرها التجارية من الملح، مؤرّخًا بذلك لهم حقبة ازدهارية ناشطة للمعرفة والعلوم الموثقة في مكتبات تاريخية تنحني لها اليوم دور العلم إجلالا معرفيًا.

ومن خلاله قدم المسلمون الصوفيون ليبشروا بالإسلام بالمحبة والهداية ونشر الفلسفات الإسلامية والمعرفية، حيث انتشر لتتسع رقعته إلى معظم الدول الأفريقية من السنغال، وغانا، وغينيا، ونيجيريا، حتى أصبحت «تين بكتو» مدينة متميّزة بتنوّعها بتمازج حضاري من العرب والأفارقة والمسلمين والديانات السماوية الأخرى (المسيحية واليهودية) التي تواءمت مع تلك الشعوب وتعايشوا تحت صرح الثقافة والتحضّر الذي يجمعهم، رغم وجود القبائل الطوارقية التي أسّستها للسكن في القرن التاسع الميلادي، إلا أن الفضل يعود لثلة العلماء والفلاسفة والتجار العرب من كلّ الطوائف الذين قدموا إلى مالي، وعملوا على تقويتها ملاحيًا وتجاريًا وعلميًا لتتحوّل إلى أهمّ موقع استراتيجي في أفريقيا منذ القرن التاسع، والذي بلغ أوجه من القرن الحادي عشر وحتى في أواخر القرن السادس عشر، وذلك بسبب رعاية حكامه ذوي أرباب العلم والفقه والأدب، حتى مرّ بمراحل انهيار ونهضة في القرن السابع عشر لتتحوّل مدنه فيما بعد إلى مطمع مهمّ للمستعمرين الذين قدموا، وعلى رأسهم الإمبراطورية الفرنسية للاستيلاء على كنوزها الذهبية والتجارية والعلمية.

مساجد وأضرحة «تيمبكتو»

لعبت المساجد في «تيمبكتو» دورًا تعليميًا وثقافيًا إلى جانب دورها الديني على غرار جامع الأزهر في مصر، والجامع الأموي في دمشق، والجوامع الإسلامية في ماليزيا وتركيا وإيران والمغرب العربي، وعرف بالتعليم المسجدي الذي جمع بين الفقه والثقافة الإسلامية، كذلك تعاليم طرق الصوفية إلى جانب علم الفلسفة للصوفيين الذين أرسلوا علماءهم وشيوخهم وأعلامهم الدينيين والصوفيين أمثال «أبو العباس أحمد التيجاني، ويحيى وعمر، وعبد القادر» وغيرهم من الأولياء الصالحين إلى افريقيا، وخاصة «تين بيكتو» لنشر تعاليم الإسلام بالسلم والمحبة والهداية وبأسس علمية دينية، كما لعبت الطرق الصوفية دورًا في نشر الدين الإسلامي بسرعة في معظم الدول الأفريقية، وخاصة في غربها وشمالها، وبنوا العديد من المزارات الدينية والمقامات والزوايا والتكيّات والمدارس الصوفية، إلى جانب تشييد الأضرحة للأولياء الصالحين، والتي بلغت 33 ضريحًا ومقامًا، والتي قام التكفيريون من حركة «أنصار الدين» من الأصوليات المتشدّدة في المدّة الأخيرة بهدمها جميعها، وتهديم أهمّ مركز أثري ديني إسلامي يعود لأكثر من 1500 عام، وذلك في بدء العقد الثاني من الألفية الثانية أي في أبريل 2012 وصولاً لسبتمبر 2012م، محطّمة بذلك أهمّ حقبة إسلامية عرفت بازدهار العلم والتقوى فيها.